هالة فهمى

ربع رجل

قصص



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠١

الكتاب : **ربع رجُل**
الكاتبة : **هالة فهمى**
الطبعة الأولى 2001

الإخراج الفنى والتنفيذ
أحمد توفيق

الإهداء

إلى عزت..

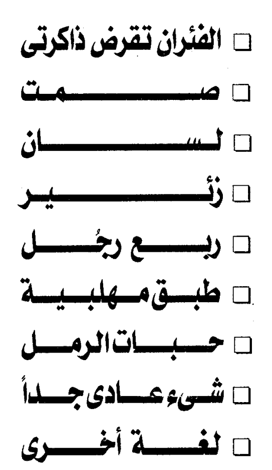
هوى وشوق..

وبضعة سطور هي أنا..

هالة

ربع رجُل

(١)



□ الفئران تقرض ذاكرتي

يتسلى بحبات السودانى .. ألقى ما بداخل عقله فى غياهب المعتقل الخارج منه توا .

ألوك الصمت أمامه ، أتأمله و هو يراجع ما خطت أناملى التى تعزف الآن على أطراف مكتبه لحن التوتر الخالد ، عرفت هذا اللحن منذ رأيته ، أذناى تستعدان لسماع نهاية المعزوفة !

ـ سأحاول نشره .. سأبذل ما أستطيعه .. أنت تعرفين .... (نفسى تحدثنى : نعم أعرف .. إنه سلبى .. حقن بالخوف و الكره .. يبذل ما يستطيعه لتحطيم أى نجاح .)

رفعت رأسى أتأمله و هو يستعد للنطق بها ، فإذا بفأر كبير يجلس أمامى يلتقط حبات السودانى بذيله الرفيع و يلعب بأذنيه المستديرتين ، أسنانه الصغيرة المدببة ، صوته و هو يقرض السودانى أفزعنى تفصد جبينى ، عاودت النظر لمكتبه .. ارتطمت قدمى بالباب المغلق و أنا أعدو هربا .. منظره يقرض ذاكرتى ، يعريها عن أعوامى الخمسة و

هى ترقد فى فراشى و على جسدى .. وقف الفأر يداعب بذيله وجهى .. قطرات عرقى تدخل لعينى تختلط مع الدمع المخنوق و الصرخة المكتومة .. مددت يدى فى رعب.. أفقت على طرقة يده على المكتب..يآه.. نفس الفأر الذى تسلل إلى فراشى فى أول يوم من شهر العسل. لم ينجح صدر زوجى ويده فى مسح حبات الذعر عن جبينى .

ألقيت خوفى ، حاولت النسيان.. لكن نملا يدب فى بدنى يفكك ذكرياتى المتجمدة .. قرأت أن الهند لا تقتل الفئران لأنها كائن حى.. والأمريكان صنعوا له أفلاما للتربح بل جعلوها نجوم هوليود.. الدانمارك قرروا تصديرها للدول النامية .. الميادين يتحلق فيها الناس حول صبى يبيع الفئران.. فى عرض خاص نظرت للفئران اقتربت من الدائرة كان الصبى يلقى بها فى برطمان مليء بالماء.. الفأرة ترفع رأسها تقاوم تحمل صغيرها لأعلى يفلت منها كلما هز الولد البرطمان ، ظلت تقاوم حتى غرقا.. الصبى يبتسم .. يقهقه تذكرت ابتسامة رئيسى .. هذا الذى احكم كل المنافذ لذاكرتى.. أطلق فئرانه لتنتقم. فى طريقى للعمل، كل يد تقترب لمصافحتى ينتفض لها جسدى رعبا.

سأواجهه.. أعلن له غضبى و لو مرة .. صعدت لمكتبه ، لم أجده، بينما وجدت ما روعنى .

فأرا ملقى على الأرض ..ضامرا .. فوقه عقربان.. يلدغانه .. يتلهيان به.. عدت لمكتبى.. جلست.. استرحت لن ترتطم قدمى بالباب المغلق لن أركض للخلف.

□ صمـــت

مــــن غرفة إلى غرفة يجوب أرجاء الشقة الصغيرة، دار حول نفسه ، سقط ، أفاق من لسعة الأرضية الباردة ، بحلق فى الظلام الحالك ، نهض يتحسس الأثاث ، وصل إلى زر النور ، يلتقط الأنفاس من الهواء الراكد ، ينتفض ، يقفز نحو المطبخ ، يعد وجبة ساخنة دسمة ، أدار الراديو على محطات متداخلة ، غاصت شهيته فى أفكاره ، تحسس الطعام البارد ، نفر ، قام ، ألقى نظرة من شرفة المنزل على الهدوء المخيم .. تأفف.

فى سرعة بارقة خطف ثيابه ، تأنق ، تعطر ، هذب الشعيرات البيضاء ، حشى الحذاء بقدميه الباردتين. أدار سيارته بسرعة وصل إلى شباك التذاكر بسينما بوسط البلد ، فى رحلته لايسمع صوت المارة ولا نفير السيارات ، الشوارع تعج بالبشر الساخطين والراكضين . لم يعد يطيق الإنتظار ، إنزوى بركن فى كافيتيريا السينما فى انتظار العرض .

يتعمد أن يشق الصفوف محدثا جلبة ليوجه له أحدهم اللوم على تأخره وقطع استرساله مع الفيلم وينتظره حتى يمر . اخترق الظلام على شعاع البطارية الرفيع .. لم يلتفت أحد له ، جلس ، اكتفى بمتابعة الفيلم وسط أناس تتوحد معه على صورة واحدة .

حركات الممثلين على الشاشة تشى بفيلم عنف . حاول الاستغراق والمتابعة ، تذكره صورة المصعد الآن وهو يحمل مدير المؤسسة الكبيرة بعمله الذى خرج منه على المعاش منذ شهور . اشتهر بقلة كلامه ، وإذا تكلم فهو آمر ، حركة الأوراق والأرقام هى ما تعنيه ، لم يسمح لموظف أو زميل بمناقشته شفهيا ، كله بالأوراق والأختام والتوقيعات ، يومه ملىء بالعمل .

المنزل أصيب من فيه بالخرس .. دائما لديه صداع ، يريد السكون، تعلمت زوجته لغة الفاكس فى حواراتها ولما ضاقت به تركت المنزل مصطحبة الأولاد لتعيش مع أمها العجوز، تزوج أبناؤه ولم تعد الزوجة .. نسيته . أفاق ، وجد الصمت يلف السينما مازالت الصور تتحرك فوق الشاشة الكبيرة ، فى هدوء مد يده يتحسس من بجواره ليتأكد بأنه ليس تمثالا ، وقعت يده على جزء طرى ، نهرته المرأة بنظرة غاضبة ، إعتذر عن تصرفه :

ــ آسف لم أكن أقصد .. إنها ... .

توقف عن الكلام كانت قد استدارت عنه ، إلتفت للناحية الأخرى، طفل بجوار والده أراد مصادقته مد يده فى جيبه .. تذكر .. لم يكن به أبداً مكانا للحلوى ، بسط كفه فوق ركبة الطفل :

ـ هيه يابطل أعجبك الفيلم ؟

قطب الطفل ، لَمّ ساقه مزمجرا ، تنبه الجالس أمامه نظر بامتعاض.. انكمش الرجل داخل صمته ، أضيئت الأنوار (استراحة) خويت المقاعد الا قليلا تأملهم .. فتى وفتاة يتضاحكان ، آخران يتهامسان ، وذاك لف ذراعه حول كتف رفيقته التى تناومت فوقه ، شلة من الأصدقاء الشباب إخترقت نكاتهم طبلة أذنيه ، ضحك ، وجم ، إنه لا يمتلك صديقا واحدا . إنتهت الاستراحة ، فى الظلام لملم نفسه جر رجليه إنسحب .

فوق مكتبه وبعد تلقى العزاء فى مدافن المدينة الجديدة البعيدة وجدت زوجته وأولاده ورقة بيضاء «وصية» لا تدفنونى فى قبرى الجديد الذى اشتريته لأدفن فيه بل فى مدافن العائلة بقريتى فأنا أخاف الوحدة. همت ابنته بالصراخ نهرتها الأم :

ـ إصمتى .. كان أبوك يفضل السكون .

□ لســــــان

هـــدأ الليل ، توسد القمر قلب السماء ، غلفه السحاب الرقراق، شح الضوء المسكوب فوق البسيطة ، نام الخلق إلا عيون عبد القوى ، ظل يركض منذ أول الليل خلف الضفادع يهمس لها : يا ضفدع يا بنت ضفدعين .. ردى على عبده المسكين أم أنك تفضلينه من الطين .

يمد يده فى المصرف يصطاد قرموطا يحاول التملص ، يتكوم بجوار الشادوف يبكى :

– يا مسكين آكل القراميط لا الضفادع .. هم يحبونها ، أنا أكرهها كراهيتى لزمن مسيلمة .

يصيح : مسيلمة نبيكم ولحمنا طعامكم

يعلو صوت بكائه ، نغلق علينا دورنا نحاول النوم .

عبد القوى من بلدتنا ، ولدنا وهو موجود والناس تموت .

جلبابه بلون الأرض ورأسه مجدب ، وذقنه شعثاء . يقتات مع صيد الماء حشائش الأرض. نفسه تعاف خرج البيوت وهباتها. ينام على رأس البلدة ، يتوسد ذراعيه، يتغطى بعيدان من قش الأرز ، عيناه ضيقتان ثقابتان ، صوته الجهورى يخترق الصدر.. يسكن فيه .

قليلون من يحاولون التقرب والحديث معه ، يخافون جرأته .

ليلة .. طرق باب مجاهد بعد عودته من العراق صائحا :

– الغربان أكلت فخذى زوجتك يا مجاهد وأنت فى الغربة تجاهد .

زوجة مجاهد كادت تسقط وهى تستحم، لملمت فخذيها قبلت رأس زوجها منعته من الاعتداء عليه ، ولم تخرج من دارها حتى سافر ثانية.

حول راكية النار ، حكايات وأقوال ، عبد القوى فاكهة السهرات .

تمر الليالى ولسانه فى القرية يسعى ، علقت به عبارة واحدة يصيح بها كل مساء (كيفما تكونوا يول عليكم) . تطوع أبناء البلدة المتعلمون بكتابتها أينما يأمرهم عبد القوى. على حائط الجمعية ، المستوصف ، المدرسة ، دوار العمدة .

اجتمع الناس لأول مرة يفكرون فى عبارة المجذوب الذى لم يعد ينطق غيرها ، نسى اللصوص والعاهرات .. لم يعد يعلق عليهم..فقط هذه العبارة

تمر عبارته ليلا ، فى الصباح نجد المصارف مليئة بالكيماوى الفاسد ، وبقايا الأوراق المحروقة لأرقام لا نفهمها .

ضقنا بصراخه ، وضاق بنا .

برزت عظامه ، جحظت عيناه ، نقش داخلها (كيفما تكونوا يول عليكم) . فجأة دوت صرخة:

عبد القوى راقد فى البركة ، ولسانه مقطوع.. ملقى فوق الأرض.

حاولوا دفن اللسان مع جثة صاحبه ، كان قد التصق بالأرض ، نبتت جذوره وامتدت تسعى تحتها.

أقاموا فوقه ضريحا من طين ، البعض يراه يتحرك فى المساء

والآخرون يؤكدون أنهم يسمعون صوت صراخه فى الليل (كيفما تكونوا .....)


□ زئـــــير

كمموه بقناع الأكسجين ، صوت جهازه يشبه كركرة الشيشة ، يرفع القناع ويزفر الهواء كنفثات من الدخان ، يبتسم ، يضحك ، يتذكر رفاق المقهى ، تذهب أنفاسه بعيدا .. يضع القناع لاهثا نادما ، صدره ويده اليمنى معلقان (بالمونيتور) الذى يظهر رسم قلبه المتعب ..يعاود الكرة ، فى هذه المرة يرفع القناع .. ينادى :

– أنت ياللى بره !!

تهرول فتاة تمتلك صفات نصف ملاك ، يسألها عن زوجته التى تأخرت عليه ، زاعقا ، تختفى نبراته أمام وداعة الممرضة، تؤكد أنها فى الطريق .

بأنفاس متقطعة يسأل عن وجبته ؛ تقدم له كوب العصير :

– سمحوا لك بالسوائل اليوم .

ـ أريد طعاما .

ـ خطر ياوالدى .

تدخل الزوجة المترهلة لاهثة ، فى جعبتها خيرات الله الممنوعة عليه .. يتأفف من الممرضة :

ـ خلاص .. زوجتى حضرت .

يتفحص شنطة الزوجة ، هبت رائحة الفرخة البلدية . أكل نصفها ، تفاحة تنزلق الى أمعائه وإصبعان من الموز .

ـ هل تريد المزيد ؟

ـ خبئيه فى الدرج ، لعلى ... .

ـ يلهث .. يفقد وعيه .. تركض .. يركضون ..

stat ستات ، كلمة واحدة تعنى الخطر الشديد ، بعد محاولات مستميتة يستقر ثانية معلقا بالأجهزة غائبا عن الوعى ، فى لحظات الإفاقة نظر لشاشة «المونيتور» ، رأى أسدا يجوب القفص ، ذبذبات قلبه أسياخ حديدية تمنعه من القفز خارج الشاشة .. يزأر :

ـ يأبله ياللى بره .

تهرول الممرضة :

ـ حمدا لله على سلامتك كنا فين وبقينا فين ،

ثائرا :

ـ أين المبولة ؟

تضعها .. تسحبها ، تهرول الزوجة اليه .

ـ أين كنت يا حرمة ؟

يتفتت ردها أمام وابل الشتائم ، تدمع ، تمضى من أمامه منهزمة ، تربت على كتفيها الممرضة :

ـ لا تحزنى هو لا يملك إلا صوته .

تمسح المرأة دمعة فارة ، قبل أن تستقر مقعدتها فوق الكرسى هرولت على زئيره مرة ثانية.

ـ أخرجوه إنه يختنق .

ـ من ؟!

ـ هناك .. محبوس

يشير الى «المونيتور» ، ذبذباته تعلو .. تهبط والرقم المكتوب يزيد ، اقتربت منه الممرضة .. همس :

ـ الأ ... سـ ... د .

ـ أين؟

سكن الصوت والجسد وعيناه تبحلقان إلى الشاشة أمامه ، كانت مجرد خطوط صماء وعلامة استفهام فى نهاية الخط بلون الملاءة البيضاء التى شدوها على وجهه .

□ ربــع رجــل

زارتنى إحدى عشيقاته القديمات، طرحت أمامى براهين خياناته لنسائه، شرحت لى مفاتيح اللعبة التى يلعبها مع كل امرأة، فإذا وقعت بين مخالبه، مارس معها فنون انتقامه.

الحقد يرسم خطوطا سوداء، يتشكل مع الامتقاع البادى على وجهها وهى تصف تفاصيل انتقامه منها.

غبت خلف الصمت، تركبنى اللحظات، تقفز بى عبر الأيام التائهة فى سنوات عذابات الحب، ذكرتنى نظرتها الحاقدة بأول أيامى فى العمل:

ـ أنا المتدربة الجديدة.

أجلسنى بإشارة من يده التى عشقتها فيما بعد وهى تداعب يدى، شعرى، تهدهدنى، سمعت لمزات زملائه:

ـ حظه من نار .. كل المتدربات يصلن إليه أولاً .. هه .. أرزاق.

تغاضيت عما سمعته .. لعله الحقد، همست لى إحدى زميلاتى:

ـ إنه لايصادق إلا البنات، ولابد من وضع بصمته على حياتهن. ابتعدى، أنت مأخوذة به.

انظر فى وجه وفاء الآن ..

إنها تتحدث مثلها، أزعجتنى نبرات صوتها التى احتدت وهى تقول:

ـ لم أندم على شيء سوى ضياع سنواتى، وأنا أتوهم حبه، ما وهبته سوى حب نقى .. لم يكن يريد إلا جسداً، كأنه دراكولا، يجدد شبابه بمص دماء الحسناوات.

تدفعنى دقات قلبى لنبذ كلامها، ألا تعلم أنه صار نبعا أستسقى منه لنبتتى الجافه، أى سم تريد دسه فى خلاياى لقتل أيامى الباقية بحبه .. هل يتركنى لدمية جديدة ؟!

كان كثيرا ما يطرح ماضيه أمامى، ذكر كل علاقاته بالأخريات، أكد أننى مختلفة، لحظات عطفه وشغفه، ضحكته كطفل برىء لا يحمل هموما أو ذنوبا، قدم كل ما يملك من عطاء، لم يطالبنى بثمن لما يهبه لى من أيام عمره.

علا صوت الزائرة الثقيلة بنبرة غلفها الغل:

ـ كان استغلاليا .. صلفا، كنت فريسة سهلة له .. صدقينى، أنا أيضا امتلكنى فى سرعة غريبة، كان يدرينى.

تغضن وجهى، تتفتت خلايا قلبى، لم يبق فىّ إلا حشاشة، عرف الخوف طريقه لعينى التى ما عرفت إلا الألق منذ رأيته .. فليكن، لعلى

أكون الفريسة الوحيدة التى تخيرت الشرك لتقع فيه .. فشلت فى خطبتين ونصف زواج، لم يستمر سوى شهرين، وكأنى نصف امرأة، معه شعرت بأنى مكتملة الأنوثة، الغزل من فمه له طعم بليل، فتحت له كل يوم نافذة من نوافذى الموصدة .. أوصدت أذنى عن الحاقدين منذ عرفته، مالى لا أقوم بطردها .. الآن نظرتها متوترة، لو دخلت لأعماقها سأجد ليلاً بهيما، بقايا احتراق لنفس كارهة.

فى فحيح كمن ينفث نارا:

ـ كل فرحة غصت بحلقى منذ عرفته .. عشت أيامى ضائعة، مجنونة به.. أطارده كى أحرمه النوم، أذكره بعذابى وحبى، ويرفضنى فى صلف وجلافة.

انسللت لأقدم لها عصير ليمون كواجب ضيافة، عله ينهى سخافة اللقاء، أفكارى تنعصر كالليمون فى يدى، كيف أحتمل افتراءها..؟ إن وهج الحب يصهرنى معه كيانا واحدا، صرنا جذوة عشق .. سألته يوما.. هل تحبنى؟

كانت عيناه تبتعدان خلف علامات الأسى والندم.

ـ ما أحببت سواك، كنت فى رحلة بحث عنك.

ـ ومتى عدت ؟

ـ يوم وجدتك .. وجدتنى، امتنعت عن كل ما تكرهين .. هل تصدقين ؟!

أفقت على صرختها:

ـ أنت لاتصدقين ..!!

ـ قص على كل ماضيه ..

ـ لتعلمى أنه رجل ممزق من امرأة أولى بحياته، لفظته لآخر .. هو ينتقم منا، يحطمنا.

تتحدث كموتورة، مطعونة فى كبريائها، نظرت لها، وهى ممسكة برأسها..

قالت بنبرة يكسوها الهم:

ـ لعله لم يصل معك لنهاية العلاقة.. فما أن يصل سيركلك مثلما فعل معى، سيحاول ويحاول.. وعندما تصلين للنهاية والمتعة معا.. سيتأكد لك ترسخ كرهه لكل امرأة حتى وإن كانت أمه.. لم تعد النساء يحركن لديه عاطفة، لا يرى منهن إلا ما يحرك شهوته.. إننى أكرهه، بنذالته، ونجاسته، لم يعد بنظرى سوى ربع رجل .. هل تفهمين؟ ربع رجل.

تركتنى.. صدمنى حوار العاشقة المهزومة..

ألقى بها خارج مملكته بعد أن أجلسنى على عرش مشاعره..

هل حقا أحبنى؟ أم أننى كنت ندف الثلج فوق سعير رغباته وتجاربه فاستكان لحنانى؟!

ذهبت إليه أجرجر فشلى السابق .. خوف عات .. هل عرف مواطن ضعفى ؟ هل تنبأ بما يكفى عن قلبى الجديب ؟ جلست واجمة خرساء.

مزق بصوته صمتى، هم بذبح الحزن من عينى، بحت بما حدث.

ضمنى لعينيه، نفض عنى علامات الخوف، قربنى لأنفاسه الساخنة، لشفتيه الملتهبتين، وبنظرات احتواها الندم:

هل تقبلين ربع رجل ؟ .. زوجا لك، دعينى أتطهر بك من آثامى، أغسل ذنوبى فى ومض عينيك، أرتوى، أكبر من رضاب شفتيك، أصير رجلاً مكتملاً لك وحدك .. لا أملك إلا هذا الربع الطاهر أهديه إليك، منذ عرفتك، ذبحت قلبا متقلبا قربانا لحبك، صلبت رجلا دنسته آثامه ورعونته، صدقت تلك البلهاء الملعونة .. لا أملك سوى ربع رجل نظيف..هل تقبلينه ؟

ارتشفت دمعاتى، اقتربت، أمسكت أذنيه، جذبته:

ـ كم تمنيت أن أكون أماً، لكنى ما تخيلت أن يكون ابنى فى الأربعين من عمره .. ولتعلم ! سأربيك بحزم .. فلا تخطئ، ضممته لصدرى، أعد السنوات ليكبر فيه، أحميه بعيون حبيبة وقلب أم.

□ طبق مهلبية

تراخت ذبالات الشموع ، ترسم فوق الحائط عملاقا أسود ، يشدنى من جوانحى ينزع فؤادى ، فزعت على صراخ ابنتى .. هرولت .. ركعت .. ضممتها ،تنفست وابتلعت بكائها .. أسبلت أهدابها المبتلة .. نامت ، نسيت سحورى .. أشبعتنى قبضة يدها على صدرى ، فى الصباح سألتها :

ما الذى أفزعك بالأمس حبيبتى ؟

عاتبتنى نظراتها على اقتحام سرها الصغير .. همست بنبرات محتبسة :

بابا راجع .. و لا..؟

شددتها بعنف ، حلقت ذراعى حول خصرها الناحل .

وحشنى قوى يا ماما ، أمس بعد الغارة .. حلمت أن الطيار الذى سقط فوق سطحنا .. هجم علينا و أخذك ..و..

أدركت أنهـا تقص عليّ الحلم وتخـرج مـا طوت عليـة صـدرها الصغير ..وهى التى لاتفتح كنز أسرارها إلا لأبيها :

اكتبى له رسالة .

مرقت من أمامى .. إنكبت فوق كراستها :

بابا الحبيب :

أمس اشـتـعلت طـائرة فى السـمـاء و سـقـط منـهـا طيـار ..أمـسك به الجيران .. شكله مـخيف ..لكنى أشفقت عليه .. عم سعيد و حسين و محمد و موسى ..ضربوه ..ماما قالت أنه عدو و لا يجب أن أشفق عليه و أنه ممكن يقتلك أو يقتل ماما ،أنا حلمت بـ ..

خـلاص لاداعى ..كـى لا تحـزن ، تعـرف يا بابا كل يوم أفـتح دولابك و أحضن بيجامتك و أشمها ،مازال عطرك فيها..أنا أشم شمة صغيرة حتى لا تنتهى الرائحة منها ..متى ستأتى ؟ لماذا الحرب ؟ رد عليّ من فضلك ..آه نسيت أقولك والد أمل غرق فى القنال و أنا قلت لها أنك ممكن تبق والدها ..ممكن .

ابنتك.

مسحت دمعتى من فوق رسالتها .. طويتها كما كانت .. أخفيتها .

ترى كم من الوقت سيظل عطر أبوك فى ملابسه ؟

لم يعـد صـوت مـدفع الإفطار بـهـجـتنا .. صـوت الدانات أقـرب ، رجالنا يفطرون على الأمل بالنصر ..الآذان يؤكد ..حىٍّ على الفلاح .. يزيح الهم عن صـدرى ، الصـغـار خلف النوافـذ الزرقـاء ينتظرون المائدة.. الأطباق دوائر لا تنتهى بعينى ، أعيدها كما هى ..

صاح ابنى :

ـ أريد مهلبية .

ـ هناك فاكهة .

ـ مهلبية ..نفسى فيها ..حرام يا ماما لا كنافة ولا قطايف أنا بحب المهلبية .

دفعت همومى ، تثاقلت على ساقىَّ ، تواريت عن نظرات الصغار ..أبوهم يحب المهلبية .. كتمت انفاسى الناحبة و بيدين مرتعشتين دثرت وجهى من لفحات دموعى ..تسرب حوارهما لسمعى .

ـ يا كريم لا تغضب ماما .

ـ وهى لماذا لا تعد المهلبية ؟!

ـ أنا سمعت عم سعيد بيقول لها :

إنهم يرسلون التموين الى الجبهة وكمان السكر اللى بنعمل منه الحلويات .

ـ مين الجبهة دى ؟

ـ ده يبقى الجيش ،ماما قالت لعم سعيد : سوف نشترى الضرورى فقط .

ـ لما أكبر يا منى هاروح الجيش ..و أكل مهلبية كل يوم، سأرسل لك طبق ..يعنى بابا بيأكل مهلبية الآن !!!!!!!

□ حبات الرمل

عائد يا طفلتى ..

أنـــا حمل مدفعه ، قبل مصحفة الصغير دثر به صدره .. زمجرة القنابل أيقظت روح التحدى فى أعماقه هتف الله أكبر عض على نواجزه . نثر رمال بارليف ، صرخ :

– أنا قاااادم .

دوى انفجار الرفض ..تمزقت الرمال ، لونها الأصفر انقلب قرمزيا تحت البيادات المعتدية .. مع كل طعنة سونكى .. ينادى :

كيف جئتم أحلتم بهجتنا أنينا .. بسمتنا بؤسا

بكاء صغيرته يدفع ساقيه للأمام ، سواعده الفتية تهدهدها :

لا تبكى يا طفلتى ذاك عرف الغادرين.

يشتعل فى ذاكرته انكسار عينيه أمام نساء أسرته منذ ست سنوات ، لم يستطع حمايتهن .. رحلة عودته الحزينة إليهن هزت رجولته ..

انتزع نفسه من لحظة التذكر قبض على الرمال نثرها فى وجوه طابور الأسرى ، جمعها من أعينهم الذليلة صاح :

لن أسمح لرمال بلادى بالأسر فى عيونهم .

□ شيء عادي جدا!!!

ـ قف..

زفرة طويلة لونت يومه بالضيق .. ساعة .. أكثر .. و الموكب لا يجئ ..

ـ يا باشا .. أمر بسرعة قبل الموكب .. لن أحدث ضجة .

رمقه ذو الرتب اللامعة و لم يجب .. ضم ساقيه على نفسه .. تذكر :

أعدُ السيارات .. أُلهى نفسي .. واحد .. اثنتان ... . مائة ...آآآآآه .

ـ يا باشا أترك لكم السيارة دقائق ..هنا بجوارك خلف الحائط .

نظرة ميتة من فوق الرتب توجه إليه ..

ـ لا أحتمل ، خذ رخصتي .. بطاقتي .. أو حتى تعال معي ... ..

كله تمام يا أفندم ، نعم الطريق جاهز .

حاول النزول من السيارة .

ـ اركب ..!!

ـ يا ريس الموكب غاب .. حرام عليكم .

ـ هناك أوامر .. ضيوف فى زيارتنا .

ـ يعنى يشرفكم قوى أنهم يمروا على شعب غرقان فى ....

ـ أمسك نفسك .

ـ عندى السكر .. لن أقدر.

... الشاب ذو العشرين ، يركض يحمل لفة أوراق .. الصقوة بالحائط .. فضوا الأوراق .. صرخ فيهم .

حرام و الله أخر فرصة .صوت من اللاسلكى جاهز يا أفندم ... نعم يا أفندم (صرخ السائق)

يا اااافندم .(محسور) .

سالت دموعه ، ابتل سرواله .. تقدم أمام السيارات ، سرواله المبتل يرسم خطا لسيرة ، رافعا يديه يذود الرصاص .. تقدم منة الشاب ذو العشرين .. نظر يمينه و شماله .. حدق فى فوهة المدافع .. كبر ثلاث .. تقدمهم لصلاة الجنازة .


لغة أخرى

افترش النجيل باسطا ذراعيه تدثره السماء .. تسابقت دموعه فوق وجنتيه . عاجزا عن شق صدره ليلقى بالاختناق بعيدا .. زفرة طويلة أصدرت صفيرا .. كررها .. سمع زقزقات الطيور .. صفر ثانية .. عانقه هديل الحمام ، سرب العصافير يقترب منه ، حرك ذراعيه .. ضم الهواء لصدره .. صفر وصفر .. قفز .. رقص .. ضرب بجناحيه .. عانق الأشجار .. إنه يخرج صوتا ، هناك من يسمعه ويفهمه .. هرول إليها عائدا.

اجتذبها نحوه .. حاول أن يدخلها فى عمق عينيه .. حاولت الخلاص من ذراعيه القابضتين عليها .. صفر لها .. انفلتت منه ساخرة :

- بلاش هبل .. مش فاضيه .

انكسرت لمعة عينيه ، احمرت أذناه ، ركل قفة الخبز ، خرج .

ارتكن بزاوية فى الصيدلية ، راح ينظفها ، أخذ يراقب الشفاة المتحركة :

– أريد دواء للصداع يا دكتور .

– أريد دواء لإسهال .

– أريد حقنة إنسولين .

ركض نحو المرآة ، حاول أن يحرك شفتيه بكلمة أريد .. ظن أنه فعلها ، وقف أمام صاحب الصيدلية ، جذبه من يديه ، حاول إخراج الكلمة .

ضحك الصيدلى ساخرا ، داعبه لم يلتفت لمحاولته .. حمّله باحتياجات المنزل ، أحنى رقبته .. إحمرت أذناه .. عرج على طريق السوق ليطمئن على زوجته .. رآها تبلل الفجل بنغمات صوتها :

– الورور طازه يافجل .

نظر لشواشى الجزر .. يشبه شعرها .. كعباها مشققان ... لونهما بلون التراب الذى تجلس فوقه ، تزوجها فى مزحة من الدكتور كمال صاحب العمل ، نكتة أطلقها وانقلبت لجد لكنه حين يضمها يخالها سعاد حسنى .. لماذا لاأكون بعينيها عبد الحليم حافظ ؟!

مر بجوارها ، قبض على حزمة فجل بحركة استعراضية قدمها لها كباقة ورد .. هم بالغناء (و الشعر الحرير ع الخدود يهفهف و يرجع يطير .. بتلومونى ليه) .

صرخت فى وجهة ..

– بتقول إيه يا أخرس مش فاهمة ..

ركل القفص فى وجهها وفر هاربا الى منزل صاحب العمل .. عاوده الاختناق لمحاولته أن يتكلم .. صوت «هلفطته» يزعج من حوله جلس فوق السلم ينتظر الطعام لرب العمل .. بجواره جلست ابنة الصيدلى ببراءة خمسة أعوام تطعمه من الحلوى التى تحمل :

– تعرف تحكى حدوته يا عبده .

مد يديه ربت فوق ركبتها .. حاول حملها .. ضحكت ..تملصت :

– لا يا عبده .. ماما قالت لا تلعبى مع الكبار .

ربت فوق ظهرها .. رمقته أمها صرخت فيه :

– ماذا تفعل يا حيوان ، جذبت البنت ، ألقت فى وجهه بصينية الطعام .

حاول أن يسألها ماذا فهمت ؟ .. ماذا تقصد ؟! .. دفعته من فوق درجات السلم .. صرخ .. صعد ليفهمها ألقت به كنفاية ، تجمع الجيران .. صاحت :

– الحيوان يعاكس ابنتى ..

عيناه تستنجدان بالطفلة ..اختفت وسط السيقان التى تجمعت لتركله .. حاول الصراخ .. خذله لسانه .. تشقق جبينه و هو يهذى و يخبط رأسه فى الحائط ، سال الدم ، خضب اللحظة بالتوتر ، خيم الصمت على الجميع ؛ توقفوا حين ركضت الصغيرة نحوه ، تضم

ساقيه خائفة .. باكية .. مشفقة ، دون أن تدرى أن كل هذا بسببها أخرجت سودانى من جيبها :

خذ سودانى يا عبده .

نظر إليها طويلا ..رمق السيدة التى نكست رأسها .. خمدت النار فى عينيه فجأة .. حاول أن يصفر .. فعلت مثله الطفلة ..سعيدا حاول الغناء ضحكت الصغيرة .. أشرقت عيناه .. حملها ، رقص بها .. كلما قلدت غناءه شعر كأنه طائر مع سرب العصافير.. نسى الدكتور ، وظلم الست ، الزوجة ،نظر فى عين الصغيرة ، احتواها بدوائر عميقة ، هبط السلم طائرا كانت عيناه معلقة بالسماء يعانق المخلوقات التى تفهمه يجلس بجوار الماء ، يسمع خريره ..و يغنى .

(٢)

- □ آيس كريم مر
- □ ثوب أسود للزفاف
- □ سيريالية
- □ مسافرة فوق الخطوط
- □ أرض الماس
- □ أربع سنوات تكفى
- □ شارب زوجتى
- □ صور

□ آيس كريم مر

تسعد حينما يحتوى فستان أمها القديم ذلك القد الصغير، تبدو به بلهاء .. لكنها ستصبح جميلة كأمها.

خطفته ، لبسته لتضبطه لها ، ضحكت الأم وسألتها أن تغسل لها الأوانى، فقد كبرت وأصبحت عروساً ذات أحد عشر عاماً .. ارتدت مريلة المطبخ.

فرحت بها أمها ، منحتها مكافأة مرطبة فى هذا الحر الشديد :

- اذهبى إلى متجر «موريس» واشترى لنا «أيس كريم» .. أشرقت معالم الرضى على وجهها، قفزت للشارع ، تهوى رائحة هذا المحل، التى تختلف عن باقى محال البقالة، خليط من شذا الألبان والأجبان والبسطرمة .. ليس كدكان عم خليل.

الأم تجلس فى الشرفة انتظارا لعودتها ، حملت «الايس كريم» بين أصابعها الصغيرة ، تهرول عائدة .. تتلمظ وعيناها تفضان أوراقه الفضية.

ظهر فجأة أربع من بنات الحى يلعبن ساعة المغرب الهادئة.. جفلت .. نادين عليها لتلعب معهن:

ـ هيام .. ماذا تحملين ؟!

التفتت بسعادة وفخر وما كادت تفعل حتى ارتسمت السخرية فوق وجوههن..هتفت إحداهن :

شكلك مثل الخادمة .. ما هذه المريلة .. والفستان ده .. شحتاه ؟

استرقت نظرة إلى ثيابها .. المريلة !!.

ـ ده فستان ماما ودى مريلتها .. أصلى ..

ـ شكلك وحش قوى أنت على طول تلبسى هدوم واسعة عليك بتاعت خالتك .. مامتك.. أختك .. هه .. هه.

هزمتها الكلمات ، تلعثمت .. لم تستطع أن تقول: نسيت خلع المريلة والفستان لسعادتى بشراء «الأيس كريم» .. لا أتذوقه إلا مرة كل شهرين خلسة من وراء اخوتى الستة .

عادت تبتلع دموع إهانة صديقاتها، وضعت «الأيس كريم» أمام الأم التى ربتّت على كتفها:

ـ مالك باكية .. هل تعثرت ؟

أومأت .. بالإيجاب. قذفت المريلة، خلعت فستان الأم ، ارتدت بيجامتها .. أسرعت تلعق «الأيس كريم» قبل أن يتحول لنقاط ساخنة .. اقشعرت لمرارته !!

□ ثوب أسود للزفاف

خلعت الحـذاء .. مـدت سـاقـيـهـا فـوق السـيـاج الحـديدى. ملتهبتـان كوهج الشمس المنكسر المتعب، علقت عينيها تنتظر لحظة يغـوص قـرص الشـمس فى مـاء النيل، لعلها تسمع طقطقة الأشعة الساخنة عندما تلتقى بالماء.. كلاهما يطفئ انتظار الآخر له.

تتأمل لحظة استقبال ليل القاهرة الساهر .. أضواؤه تبرق.. قطع من ماس فوق صدر النيل الحريرى الأسود. جمعت أكياسها المنثورة بجوارها فوق المقعد الخشبى، دست قدميها فى الحذاء، انحشرت فى الأتوبيس، تتأمل الوجوه المقطبة، والمستكينة، نظرات الطلبة العائدين من الجامعة بمرحهم، التصقت نظرتها فوق شفتى فتاة تحملق فى فتاها الواقف أمامها يتمايل مع هزات الأتوبيس، يختلس لمسة من يدها أو ضمة غير مقصودة، انتقلت نظراتها إلى لا شئ .. سنواتها فى المعهد

العالى للخدمة الاجتماعية مرت دون لقاء أو ضمة غير مقصودة.
تحفظها يرهب زملاءها ، خوفها من تحذير أمها:

- البنت سمعة ، وطلبة الجامعة لا وراءهم ، ولا أمامهم ، خذى بالك. أخذت بالها ومرت السنوات تنتظر، أربعين عاماً تترقب ابن الحلال منذ ولدت.. ألم تقل لها أمها:

- البنت نصيبها مكتوب من يوم ولادتها ؟! وتأخر النصيب كثيراً.

أفشت لصديقتها رغبتها :

- أريد منديل عقد قرانك، يقولون أنه يفك النحس مادام قد تم به زواج.

تمتلك حتى الآن سبعة مناديل آخرها منديل أختها الصغرى الجميلة الرشيقة التى توفيت منذ عام.

يوم طرق بابهم كادت تفقد وعيها :

- أرمل .

- لا يهم .

- لديه طفلان .

- أكسب ثواباً.

- على قدر حاله .

- ربنا الغنى .

- ليس وسيماً.

- الجمال لله ، الشكل ليس هدفى.

شرطها الوحيد أن تلبس فستان الفرح الأبيض .. اعترض العريس: إنه ليس صغيراً ولا هى.

رفضت العريس ..!! لن تتنازل عن حلم الطرحة التى طرزتها بنفسها.

عادت تفترش أحزانها .. فى تردد اقترب منها زوج أختها الراحلة: بنات أختك الثلاث أوْلى بك .

صرخت :

- لماذا الآن ؟ وكيف آخذ مكان أختى ؟!

نظرت لأمها تستنطقها :

- هذا قرارك يا ابنتى .. الثواب خذيه فى بنات أختك ، وزوج أختك طيع .. طيب.

ضمتها أمها :

- من نعرفه .. أحسن .

قالتها وانصرفت ، همست لنفسها:

- وحلم الفستان الأبيض وستة أمتار تل تربعت ليالى طويلة أحيك الخرز والترتر.

همست لها الصغيرة وهى تتأمل الطرحة .. تحتضنها بأناملها :

- اصنعى لى طرحة يا خالتى.

حملتها بابتسامة دامعة ، قبلتها ، نامت الطفلة ويد الخالة تهدهدها.. همست :

- ستة أمتار من التل أكبر من عمرك يا حبيبتى ... يكفينى أنتم أزين بكم عمرى.

دخلت منزل أختها موشحة بثياب الحداد ، فتحت دولاب حجرة نومها الجديدة تدفس فيه الطرحة البيضاء الموشاة بينما هتفت الصغيرة وطرحتى يا خاله.

مدت يدها ، زينت رأس الصغيرة بالطرحة ، ضمتها ، قبلتها ، كانت تشبهها.

□ سيريالية

همست في كفى :- أنت من برج شمسى ، خطوط يديك الناعمتين فيهما مرح وسحر، تحبين الاستمتاع بالحياة.

تسللت خيوط السعادة إلي وجهى ، نمت البسمة تحولت لضحكة عالية. فلم أنم منذ الأمس ، حملت همومى والأولاد، انحشرت فى الأتوبيس، بعد نزولى اكتشفت سرقة حقيبتى ، بمرارة المنهزم حمدت الله أننى خرجت بالأولاد فى يدى.

جذبت يدى، بحلقت فيها :

ـ أنت خيالية، مفعمة بالحب، تغرمين بالدعابة والفكاهة. انكمشت يدى بسرعة، تحسست خدى المتورم من صفعة الأمس، سحبت يدى، جعلتها سدادة لأذنى، شددتها، تساقطت الحروف : (ن.. ك .. د.. يـ.. ة) طفرت دمعة ، واريتها فى رموشى ، بثقة قالت :

ـ تحبين روح المغامرة، الرومانسية .. من يتقرب منك يعلم أنك مباشرة مستقيمة لا تؤذين أحداً

انسابت الدموع تشق مجري فوق الوجنات، رفعت رأسى، قوس أبيض من الحمام، نفثت همومى بعيداً، لونت السرب بلون أوهامه ، لغطه المنشز بأصوات نحاسية :

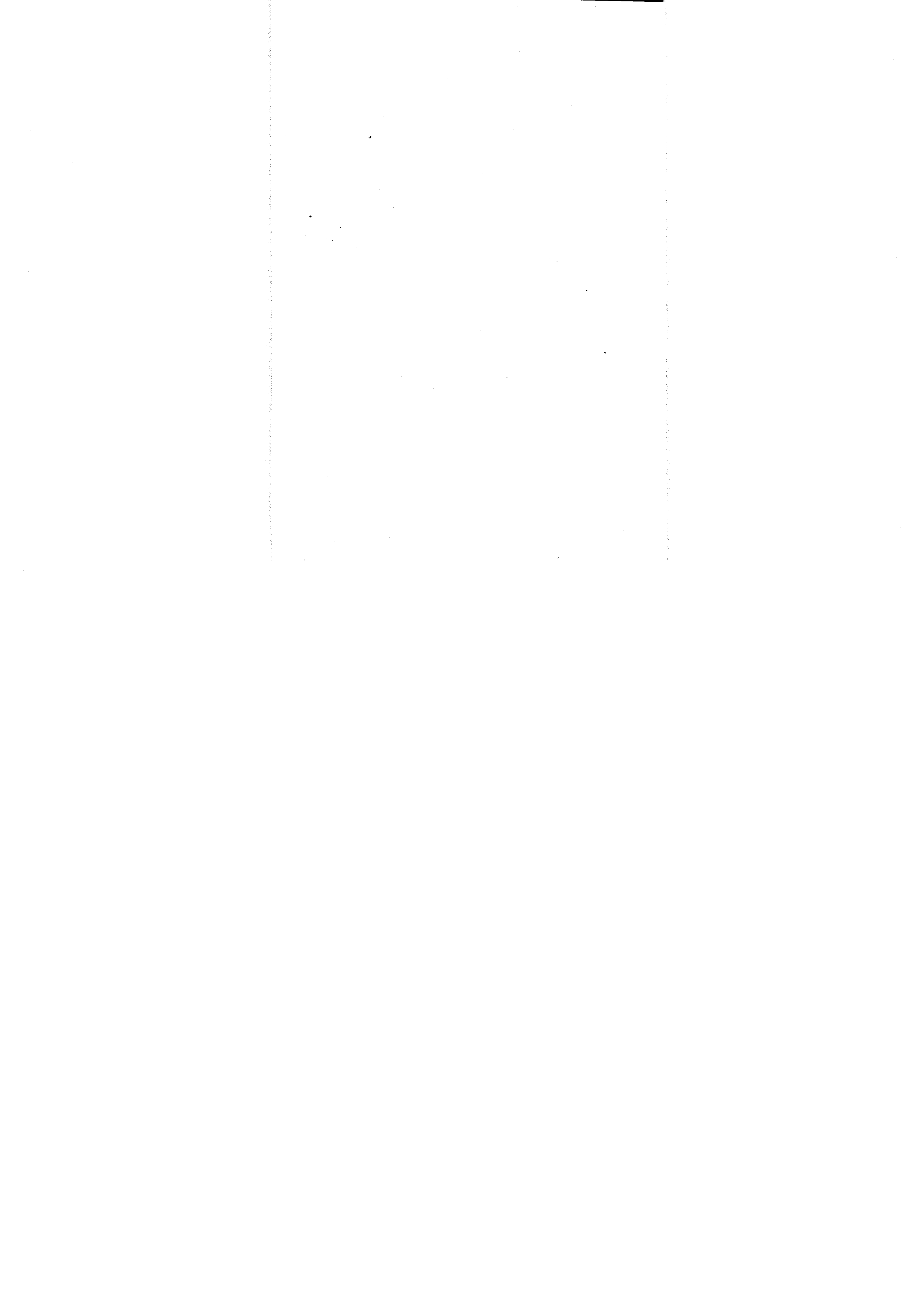
- جوازه هباب.

يصيح وكعب حذائه يعتصر ذيل القطة الذهبية .

صرخت :

- هدفك الرئيسى الإخلاص لشريك الحياة، لا تحتملين الإيقاع به في شرك، تطلقين العنان للمشاعر المختبئة.

زحفت نظراتى للوحة فوق الحائط.. صورتى بألوان زيتية وثياب زاهية، لوحة أحبها .. سماها يوم رسمها (البراءة)، امتدت يدى، قذفت بمحبرته السوداء فوق اللوحة، سالت الأحبار شكلت خطوطاً ونقاطاً ولطعة كبيرة كانهزام الشمس فى الكسوف، عبثت فيها بإصبعى. خططت : تصبح الحياة مملة بدءاً من هذه النقطة تصبح كلوحة سيريالية.



□ القطـــــة

سرعتها

جعلت المارة دوائراً بيضاء، تضيق تقبض على ساقيها .. تكبلها، كلما تخلصت من قيد تلاه قيد، أنفاسها تعلو لاهثة، تسبق عدد لفات محرك السيارة عدواً للخارج. بعيداً عن هذا المستطيل الذى يعتصرها داخله، عجلاته لا تسعفها هرباً من أفكارها، صوت أمها يسد نوافذ أذنيها:

ـ لولا سؤالك عنى لمت دون أن يدرى بى أحد .. لم يكن لى غيرك أنت وأبوك لا صديق .. لا عمل .. لا أحد .. لا أحد.

فرملة عالية زاعقة فكت رموز الدوائر البيضاء حولتها لكتلة بشرية تحلقت حولها:

ـ اركنى يا مدام .. شوية مية يابنى من القهوة .

ـ لا تخافى إنها قطة .. ربنا ستر .. اشربى.

أدركها الوعى .. زفرتهم بعيداً عنها، عادت لمنزلها مددت ساقيها، تأملتهما:

بيضاوان، تحسستهما.. ثلجيتان، حركت أصابعها .. عشرة أصابع للقدمين ومثلها لليدين، يوم تزوجت كانت فى العام العشرين، واليوم تمر عشرون عاماً ناعمة، مطالبها مجابة، تحفظ طريقا واحدا للسير إذا أرادت الخروج بمفردها هو طريق بيت أمها، شئ غريب على سيدة متعلمة فى القرن العشرين، قفزت صورة القطة الملقاة دون حراك، آلمها المنظر:

ـ ما الذى جعلها تسير فى طريقى الوحيد ؟

رفعت رأسها.. بأعلى الحائط صورة زفافها، كالفراشة الصغيرة الحالمة، اقتربت من الصورة .. همست:

ـ آآآه .. نسيت لأى شئ كنت أرنو !!

تحت الصورة قطة من فراء، تنام على وسادة مخملية أهداها لها زوجها بعد عام من زفافهما، هناك ملامح تربط بينهما .. براءة اللون الأبيض، تنبهت لشىء غريب .. أضاءت أنوار المنزل .. فى كل ركن قطة مخملية باللون الأبيض، تنام على ذراعيها، تداعب صغارها، تتأمل شيئا بعيدا، عشرون قطة بكل الأحجام لونها أبيض، تذكرت قطتها فى المطبخ، بحثت عن شبشبها .. نظرت طويلاً إليه .. فراء أبيض .. ركلته .. انزوى فى ركن .. أفزعها المنظر .. أغمضت عينيها، ذكرها بالقطة المسجاة بفرائها الأبيض، داست حافية فوق الأرض، البرودة تنعشها، وضعت حليبا، قربته، نفرت القطة .. إرتكنت على الحائط، فتحت لها باب المطبخ .. أخرجتها.. كانت خطوات القطة

قصيرة متراخية، سدت باب المطبخ .. منعتها من العودة . أكملت الهرة المشى منكسة رأسها .. رافعة ذيلها لأعلى.

همست: عليها أن تتعلم... أغلقت الباب، شعرت بالارتياح.

فى الصباح بحثت فى الجرائد عن وظيفة خالية، رسمت دوائر بالقلم حول عدة إعلانات، تم تحديد مقابلة فى شركة جديدة، سعيدة أخبرته .. قال:

ـ ماذا ؟! وهل تريدين شيئاً ؟

ـ أريد ألا أنتظر مثل أمى من يسأل عنى

ـ أنت معى فى أمان و..

ـ ما الذى يهدد أمنى وأنا أعمل وأنت معى

ـ لا أريد لك ماحدث لقطتك، انظرى من النافذة تجدينها شريدة مع قطط الشوارع .. تأكل من القمامة، تتطاول عليها الكلاب.

ـ كفى.

ذهبت يسبقها الأمل .. يرحب بها .. يفتح لها باب الشركة.

ـ إلهام.

شردت أول مرة تسمع اسمها مجردا من رجل غريب.. تعودت أن يسبقه هانم .. مدام.

قطع المدير استرسالها.. نحن هنا معا، نعمل ونتعلم.. المهم أن يكون لديك استعداد للعمل، وضع يده فوق ظهر مقعدها .. انتفضت ..

تصورته (...) مد يده ليجلسها .. كانت تسمع كلاما مغايرا .. دفعته، هرولت.. صوت زوجها:

ـ سيتجرأ عليك ..

صوت أمها: الوحدة قاسية .. لم يكن لى غيرك.

ظلت تركض، ضلت الطريق .. تاهت:

ـ أين السيارة .. السائق موعده بعد ساعة، أخرجت تليفونها، طلبت زوجها باكية:

ـ أنا فى مكان لا أعرفه، نظرت حولها .. تعال .. الطريق غريب من هنا ... لا أعرفه.

ـ كيف ؟! خذى تاكسياً

هامسة: من فضلك...

عاد بها الزوج منتشيا بينما ألقت بأحلامها على قارعة الصمت، جلست خلف زجاج النافذة مكتفية بمراقبة قطتها تخمش قطة كبيرة، تلعب بذيلها متلذذة بعد أن طالت مخالبها وتعلمت الخربشة.

❑ مسافرة فوق الخطوط

يرن الصوت فى الفضاء ويسقط ، تبتلعهُ الرمالُ.

ـ أختاه..

ـ أختاه ..

أهرول حافية فوق الصخور المنسحقة، ريقى جاف ، ألهث .. تلفنى الجبال فى دائرة لا أرى ما خلفها، يشتد أنين الصوت .. ينمو عذابى واختناقى .

أقفز من فوق سريرى وعرقى يتصبب فوق جبينى :

ـ أخى فى أزمة .

= .... !!

ـ ما كان حلماً .. بل نبوءة ..

= .... ؟

ـ ليس لدى سوى عنوان .. حروف لمكان بعيد غريب يقطنه أخى منذ سنوات.

= .... !

ـ أأنتظر ليطلبنى ؟ هل أحتمل ؟ .. لا .. لن أستطيع .

ضممتُ خوفى لأضلعى ، فتشت فى أرقام الهواتف .. حدثتُ كل المغتربين إلا هو.

يتكرر النداء .. يرن الهاتف :

ـ أخى أنت فى محنة ؟

= من أخبركِ ؟

ـ لا أحد ..

قطع الاتصـــال .. والأمل فى إجــابة باقى ســؤالى، وضـــعت السماعة.. صائحة:

ـ سأسافر !!

= كيف ؟! والتأشيرة ؟

فى السفارة ، ينطقون العربية، يصلون مثلنا، ما ينبض فى جنوبهم أفـئـدة .. ضـمنى الخـوف إليـه سـاكنة، أنتظر المرور من هذا البـاب المصنوع من خـشب بلادى، تلاقت عـيناى مع أعين الحـارس وهو يفتح.. وراء الباب أرض إسفلتية، تطبطبُ على قدمى مشفقة على خطواتى القلقـة، امـتـد انتظارى للإذن بالمرور من البـوابة الثـانيـة الحديدية.

ـ تفضلى.

دولة داخل دولة يسمونها سفارة .. سأحاول !!

- أريدُ الذهاب لرؤية أخى.

= ما يخالف لا بد من محرم .. أنت صغيرة.

- وهو صغير .. لا يملك صدراً يحميه .. مصاب فى حادث ، سأكون برفقته .. ويكون محرماً لى .

= ما يصير

- مبدأكم مخالف، نساؤكم فى بلادنا بلا محارم، المبدأ ليس ديناً بل قانون، تسمحون به لأنفسكم وتحرمونه علينا .. نستقبلكم فى كل ساعة لا نشترط .. نبيعكم أرضاً ودوراً بلادنا بلادكم...

تجمدت الحروف والنظرات حملتنى ذرات تراب بلادى خارج البوابة .. تذكرته ونحن صغار يوم أصيب بالحصبة لم يمنعنى أحد من النوم بجواره .. ضحك أبى وهو يهز رأسه :

- دعوها .. حتماً ستصاب.

الفرق عامان بيننا .. يومان يكفيان لأشعر بالأمومة تجاهه ، فصلونا ببقع من الحبر الأسود تسمى تأشيرات ..

فوق الأرض الإسفلتية وبالطباشير أخطُّ مسافات وحدوداً رسمت الطريق وضعت البلدان فوقها بلا سدود، رسمت الحافلة، الطائرة، الباخرة، رنة ضحكته فى أذنى يوم جلس يعلمنى لعبة (السيجا) و(الحجلة) التى نقفز عليها بقدم واحدة بين الخطوط ونستريح عند الوصول.

قبضت يدى على الطباشير ، ألقيت حقيبتى، قفزت بقدم واحدة، ثم بالقـدمين، ركـضت فـوق الخطوط بلا حـدود أو سـدود، فـى نهـاية رحلتى رن الصوت بداخلى.

قبضت الهواء بيدى ، جحظت عيناى :

ـ أنا عائد شقيقتى فى الصباح على خطوطك البيضاء .

□ ارض المـاس

بعـــد الغارة كومت الجدة الأولاد ، لون الخوف الأصفر التصق بهم تشربته بشرتهم السمراء.

تربعت الجدة فى جلسة شهرزادية، رصت رءوس الأولاد فوق فخذيها، يدها تعبث بمنابت الشعر، تمسح الأفكار المرعوبة، تهدهد اليتم فى صدورهم..

- احكى يا جدة حدوته العام الألفين.

- يحكى أن الرخ وهو طائر عظيم، له أجنحـــة من الغـــرب إلى الشـرق، يحـجب عين الشمس حين يطيـر، يداعب أفـراخـه الصغـار بتخويف الأفيال، وكان هناك واد للماس.

(قاطعها صغير) :

- هى أرضنا .

مكملة وهى هائمة :

- والماس حجر نفيس ...

(قاطعها ثان) :

- الحجر فى أيدى أبناء عمنا.

مكملة وهى دامعة :

- يتحايلون على امتلاكه من قديم الزمان بأنفس وأرخص الأفكار الساحر الطيب مات، لو عاش لزين الوادى برؤوس الأفاعى.

- من يحمى الوادى يا جدتى ؟

- كانت بركة ربى تحميه، غير أن الحيات اتخذت وادينا مكاناً لها تخيف الجيران والتجار .. الرخ عندما يطير ويهبط على وادينا يحمل بمخالبه حية بين الحين والحين.

- هل يأكل الرخ الحيات ؟!

- يا ولدى هو من جلبها.. ولكن حذار أن تقترب من بيضه الذى يتركه بوادينا، من يفعل يكون جزاؤه ، أن يقبض عليه بمخالبه ليلقى به فى البحر.

- كيف يا جدتى ؟!

- لا الرخ رخ .. ولا الزمان للطيبين ولا أبناء الحكايات.

- وأين الأخوال والأعمام.

- يا ولدى الرخ يحط على المكان يحكم بقانون الأساطير.

ـ هى قصة يا جدة من قديم الزمان ؟!

ـ قصتـى لكـل زمـان ومكان فـالرخ يا ولدى والحيات السـامـة فى العام الألفين ما هى إلا......

وهنا أدركت الجـدة الغارة فسكتت عن الحياة والحكايات واحتواها العدم بمخالبه الطوال..

❑ اربع سنوات تكفي

بـذلـت جهداً مضنياً فى أن تلفت انتباه الصغير بعيداً عن شرفة المنزل، تربعت فوق الوسادة الملقاة فوق الأرض .. أدنته:

ـ أحكى لك حدوتة ؟

ـ أنا جائع .

هرولت، دفعت باب المطبخ، شبت على أُطراف أصابعها، جذبت طبق الخبز، عجزت الأنامل الرقيقة عن شده .. تحيرت .. فتحت باب البوتاجاز وقفت فوقه، قبضت على رغيف، اتجهت للثلاجة، حملت قطعة جبن .. تركت بابها مفتوحاً، عادت للصبى الذى يصغرها بعامين .. أطعمته .. ناولته كوب اللبن .. تركته أمها ومعه عدة وصايا قبل أن تذهب للعمل :

ـ لا تطلى من الشباك .. إياك (والبلكونة) .. لا تردى على أحد وتخبريه بأن ماما غير موجودة .. لا .. لا .. لا .. ولا ..

أكملت الحدوته للصغير ، تثاءب ، أمالته فوق ساقيها القصيرتين .. نام .. أسندت ظهرها للحائط واضعة يديها الصغيرتين فوق رأسه كما تفعل أمها .. وغفت .

ضغطت الأم جرس الباب، لم تسمع صياحهما أدارت المفتاح فى لهفة .. الخوف يشدها من أذنيها مؤنباً لتركها الصغيرين .. وجدتهما بجوار الحائط نائمين وبسمة منتظرة للحلوى التى وعدتهما بها إن لم يرتكبا خطأ، مازالت مرسومة على وجهيهما.

□ شارب زوجتي

وقف

عبد الستار أمام المرآة يعد لخطبة الغد التى سيلقيها و هو يحتفل وسط الأهل و الأقارب بعيد الزواج العشرين قال:

زوجتى يا ناس لها بسمة ملاك .. و أظرف من جميع الظرفاء ، ضوء عينيها يشيع الدفء فى الأوصال البشرية المصنوع منها العبد لله .. تشعل البيت حيوية فى غدوها ورواحها ، تشاغب البنات و البنين ، تصادق الطيور و الهواء .. رقراقة كموجة حالمة على صفحة نهر ، كنسمة تداعب المشاعر الرقيقة .

زوجتى يا سادة لا تكشر أبدا عن أنيابها ؛ فهى باسمة السن حكائة دون ملل و الفرق كبير بين الحكاية و الرغاية .. حين أعود من العمل تزيح ستار الألم و تنشر الراحة ، إذا ناديتها ..يا... .. تهب إلىَّ:.. لبيك!!

تربى الأولاد بحكمة الرجال ، تغذيهم من صدرها لبنا و حبا ، جيراننا أخوة لنا إن تأوهت ؛ ملئت دارنا بالأيادى تعمل ، و الأطباق تملأ و ردهم إذا ما شكرنا : إنها كريمة .

وفى ساعة الصفاء تستلقى بجانبى فى زينة عروس فإذا تقلبت تزلزل قلبى و ترج الأمنيات التى تتقافز للذهن ترجوه أن يفيق .. و بعد عشرين عاما أقف بينكم معترفا بكل هذا و... . دفعة قوية جعلته يسقط على قفاه ..و شاهد ساقيها تهتزان :

ـ ما هذا ؟!!

نظر للافتة الكبيرة بيدها و للصوت النسائى المسترجل .. حاول فك عقد اللسان :

ـ وسيلة إيضاح سوف أعلقها فى العمل مجرد تحذير علمى للنساء . أقرأ .

ـ إلى جميع الحلوات ذوات النهود و الخصور و الأرداف أثبتت جميع الأبحاث فى «كامبريدج» أن الخلافات الزوجية و افتراء النساء على الرجال له أثار سلبية على المرأة غير ضغط الدم و السكر و الشلل الرعاش .. تنام المرأة فتصبح رجلا بشارب و فى آخر المؤتمرات ؛ صوّت جميع الرجال و أطلقوا التحذيرات لكل نساء العالم بالكف عن المشاحنات الزوجية و إلا زاد ربح مصانع أمواس الحلاقة .

توقيع ...رجل غلبان

تأملته طويلا .. تحسست شاربها .. مزقت الورقة قطعا صغيرة .. صرخت :

ـ سأكون بشارب ؟

انفجر ضاحكا .. بينما يداها تلقمه كور الورق

شاربها ينبت ، يطول ، أصفر بلون شعرها المسترسل .

□ صـــور

١. أب

تكرمش الجلد الأسمر فوق وجهه وجسده النحيل، سنوات .. تسقط الشمس عمودية فوق رأسه الأصلع، قسّم الحمل على اثنين، وزعه على يديه، رفض أن تحمل البنت الصغيرة عنه حمله.

مشيته صلبة، وعيناه تشيران للأمام .. دائما للأمام. فوق الطبلية المستديرة طبق، امتدت الأيدى .. مسحت ما فيه .. تشاغل بالكلام وقراءة قصاصة الجريدة المفروشة فوق الطبلية وعينه تلتهم الجوع من فوق شفاه أبنائه، يبتلعه يهرى أمعاءه .. يحتسى دمعته، ينام.

٢ . أم

تبكى المرأة تدور حول نفسها، تلملم العظام، ترممها فتصبح عملاقاً، يجدل ضفائرها حبالا، يجذب بها البيوت والرجال والأطفال والنساء .. حتى يصادف المرآة، يقف يتأمل جسده، يفتن بعضلاته المفتولة .. ينهار .. يترك الحبل، ينفلت كل ما وراءه، يتدحرج الحمل.. يسقط .. يتفكك .. يتفتت .. تجمعه المرأة فى تابوت وتلقى به فى النيل .. تحل ضفائرها وتنتظر.

٣ . لعبـــة

شئ مـا .. جـعلنى أتعـاطف مع اللعبـة الملقاة بـجوار الرف، عينها تستـجدى انتـبـاهى .. ذكـرتنى بعين الصـغيـر، يبكى طالبـاً ثدى أمـه المنصرفة عنه.

تشـاغلت ، درت حـول الأرفف عـدة دورات ، عـادت النظرات تتلاقى ، نظرة مستكينة، ونظرة مشفقة، لا أدرى كيف تولدت منهما نظرة باردة بعينى البائع.

انفصلت يدى عن تكوينى المتمرد وامتدت تلتقط اللعبة، لحظتها تعرت العلاقة بيننا .. كلانا لعبة سقطت من فوق الرف .. فلا التقطتها الأيدى .. ولا اسـتطاعت العـودة. تلونت النظرة بلون الأمل .. حـينمـا امتدت يداه من المدى البعيد تخترق كل الأرفف تحمل عبير السنوات الماضـية واعـتصـار الانتظار .. تلامـست الأيدى .. تفـتت المسافـات .. فكان لقاء ولحظة انتماء.

فهرس

صدر للمؤلفة

- أجنحة البوح (مجموعة مشتركة) سلسلة كتاب الجيل الجديد ٢٠٠٠ .
- للنساء حكايات (مجموعة قصصية) اشراقات جديدة (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ٢٠٠١

تحت الطبع :

- رجال غالية (رواية)
- فى هجاء الزوجات (دراسة)
- الحصان الأسود (مسرحية)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٢٤١/٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7625 - 7